الفصل الرابع

الدّعوَة بالقُدوَة

- الداعية في نفسه.
- فن التربية الدينية
- أهمية العمل الجماعي
- نماذج

الدعوة بالقدوة

الداعية في نفسه

يلاحظ الباحث في سير الدعاة أنهم كانوا أكثر تأثيرا في الناس بسلوكهم وثبات أخلاقهم على كل الأحوال.

وعين الجمهور فاحصة..

ومنطقة الأفعال أقوى في الإقناع.

ثم إن العناصر الخيرة قليلة نادرة في سائر المجتمعات، فما يكاد العامة يرون نموذجًا جيدًا حتى يسارعوا إلى الالتفاف حوله والتعلق به.

ومشاعر الجماهير أشبه بالماء في اكتساب الحرارة وفي فقدها – فهي تتحرك ببطء- ولعل هذا هو التفسير التاريخي لما لقيه الأنبياء والمصلحون في شتى العصور، ومع سائر الأمم – عندما سمعوا الحق فأعرضوا عنه – وكذبوا به- وكفروا بما جاءهم من العلم – وارتدوا على المصلحين بالإيذاء والاضطهاد- مصداق قوله تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[البقرة: ٨٧]. وكان فارق الوقت

أو فارق الإدراك هو المشكلة دائما، فبعد أن مات الدعاة والمرسلون – أدرك الناس خطأهم .. فعرفوا وندموا .. وشرعوا في تمجيد «الضحايا» - واتخذوا في ذلك طرائق شتى – للتكفير عن الخطأ- حتى بالغوا فيهم- ورفعوهم أحيانا إلى درجة الألوهية – فوقعوا بذلك في غلط جديد.

نقول إن القدوة الحسنة لا يساويها شيء في حسن التأثير، فالكلام – والبراعة فيه- صنعة سهلة يجيدها الخيرون كما يجيدها المشعوذون والكذابون على السواء، ويعرف سبيلها المخلصون والمنافقون جميعًا، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾[البقرة: ٢٠٤].

وأول ما يجب أن تنصرف إليه همة الداعية هو إصلاح نفسه وتعهدها بالتدريب والتهذيب، فإن آنس خيرا أمكنه أن ينطلق برسالته إلى الآخرين.

ولقد كان مما تعلمناه في مدرسة الدعاة: «أصلح نفسك وادع غيرك»، والذي نحاوله من تفصيل في هذا الباب لا يخرج مطلقا عن هذا النطاق.

وثبات المرء على سلوك فاضل يجعله في عداد الفضلاء، كما أن الحكم على شخص ما، يكون بغالب حالاته سواء أكانت خيرة أو شريرة، ومن الظلم الواضح إصدار الأحكام على الناس بالتصرفات العابرة، فتلك الأحكام قد بنيت على استقرار ناقص - ولهذا حرم الله الغيبة- وأمر بالنصيحة والمواجهة.

ولا يستحق اسم «الداعية» إلا من كان صالحا لهذه الوظيفة الربانية بأخلاقه وتخلقه جميعا، كما يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢].

فالداعية إنسان مجهز تجهيزًا خاصًا ليقوم بمهمة شاقة دقيقة، كتلك التي دعا بها الأنبياء والمرسلون .. فما أعظمها من رسالة .. وهذا لا يمنع أي إنسان يعرف الخير والحق من أن يقوم بتبليغه والدعوة إليه .. إنما نقصد بـ «الدعاة» أولئك الذين غلبت فكرة الدعوة على حياتهم، أو كانت مهنة لهم.

وفيما يلي بعض ما يجب أن يتحلى به الدعاة:

(أ) العفة والإيثار

ينبغي أن يتعفف الداعية عما في أيدي الناس .. ليظل عزيزًا مرفوع الرأس، قادرًا على أن يقوم ما يريد وأن يبلغ ما يلزم إبلاغه دون أن يحمل مِنَّة في عنقه لأحد، تجعله مغلول اليد أو مغلول اللسان.

وبقدر ما يستطيع الداعية أن يحقق لنفسه من العفة والورع، بقدر ما يكتسب من تقدير وقدرة وإمكانية.

ويجعل بالداعية أن ينأى بنفسه عن أية نزعة ذاتية أو أنانية، بل يكون غيريًّا مؤثرًا للمصلحة العامة على مصلحته الخاصة، بل مؤثرًا لصوالح إخوانه على صالح نفسه وذويه، ولقد كان رسول الله ﷺ مثالًا في هذا الإيثار.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى إذا نفد ما عنده قال: «**ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر**» (رواه مسلم).

(ب) التسامح وسعة الأفق

ويمتاز الداعية بروح التسامح، لعلمه أن «كل ابن آدم خطاء» وأن الله يقبل التوبة عن عباده، فكيف لا يقبلها العباد بعضهم من بعض «والاعتذار توبة»، ثم إن مهمة المصلحين هي إثارة المحبة والتعاطف بين الناس عامة لتجميع القلوب، فضلًا عن لزومها بين خاصة الصالحين لتقوية الصف المؤمن.

وقضية الخصومة والنزاع، إنما تنشأ في الواقع من المبالغة في الاعتداد بالكرامة الشخصية، مع ضيق في التصور أو خطأ في الفهم، لهذا كان أسلوب الدعاة في القضاء على أسباب الخصومة والفرقة يقوم على اعتماد التسامح وسعة التصور لجوانب القضايا بين الناس، وقديمًا قيل: «التمس لأخيك من عذر إلى سبعين عذرا، فإن لم تجد، فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه».

والدعاة في سعيهم للهدف الكبير لابد لهم من التغاضي عن الأمور الصغيرة التي تنشأ في الطريق أثناء المسيرة، قال الله لنبيه عليه السلام: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[الأحزاب: ٤٨].

وقال لجماعة المسلمين: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمران: ١٠٣].

والعاقل لا يضحي بالآلة الكبيرة النافعة لأن بعض مفاتيحها قد أصيب بعطب، بل يجتهد في إصلاح هذا العطب حرصًا على تلك الآلة، وإن العناصر الجيدة النافعة في الأمة

نادرة قليلة العدد، فيلزم الصفح عن زلاتهم العارضة، رجاء نفعهم الطويل ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾[آل عمران: ١٥٩].

إن الدعوة الإسلامية تجمع ولا تفرق، وتزرع الحب وتطرد معاني البغض، وتضحي بالقليل حرصًا على نيل الكثير.

فمن فهم تلك المعاني وتشربتها نفسه قولًا وعملًا فعسى أن يكون من المهتدين.

(ج) الاستعداد للتضحية

والداعية، رائد يسوق الناس إلى البذل والتضحية؛ ليتم بذلك التعادل المطلوب في كل مجتمع، بين الفقر والغنى، وبين القوة والضعف، وبين العلم والجهل، وبين العافية والمرض.

فيلزم أن يكون قدوة في التضحية أيضًا:

يضحي بالكثير من وقته: والوقت ثمين لأنه هو الحياة.

ويضحي بماله: قَلَّ أو كثر ليواسي أصحاب الاحتياجات ويسد الثغرات.

ويضحي باحتمال ما يتوقع من أذى: في النفس والبدن، لقوله تعالى للأنبياء: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٦]. ومن المؤسف أن حرص الناس على تفادي هذا الأذى يمنعهم من تقدير الخير.

ويضحي بما يرجو من نفع: حيث كان تعامله مع الله سبحانه وتعالى، وهو مالك النفع والضرر، وقلوب العباد بيده فهو لا يحرص على أي عرض زائل، بل يرجو ما عند الله.

وأخيرًا يضمر التضحية بروحه في سبيل الله، ويطمع في أن يرزقه الله الشهادة فعلًا ويدعو الله ويلح في الدعاء، أن يبلغه الله منازل الشهداء، وإذا تم له ذلك بورك سعيه، وارتفع شأنه، واستطاع التأثير في غيره.

ومما يميز الدعاة في سلوكهم الخاص، حرصهم على التعرف على إخوانهم العاملين في ميدان الدعوة، ودوام الصلة بهم، وزيارتهم والإحاطة بجملة أحوالهم..

ومعلوم أن هذا التعارف – بصورته العامة- إنما هو من أسرار الوجود، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. ولكنه لازم بالنسبة للمجموعات المتجاورة أو المتعاونة، وهو أشد لزوما بالنسبة للدعاة إلى الله تعالى.

فإذا تصورنا عشرين عالـمًا في بلدة واحدة لا يلوى أحد منهم على أحد، ولا يلتقون ولا يتعاونون، فما عسى أن يكون النفع منهم لهذا البلد؟ إنهم ولاشك سيكونون محلًّا للنقد الشديد من عامة الناس، لأن وضعهم هذا مناقض تمامًا لما يدعون إليه، ومناقض لما تنزلت به آيات الله.

وأسباب الصراع بين العلماء كثيرة، ولكن أولياء الله هم الذين لا يعبأون بالمظاهر، ولا بما يلقيه الشيطان في أماني الجاهلين، وهم الذين لا يحملون ضغنا ولا يهجرون إخوانهم لكبير أمر ولا لحقيره، ولا زلت أذكر أنني كنت بمجلس الشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله في مصر، فجاء على ذكر رجل اسمه سليمان الندوي من علماء الهند فقلت: لعله «أبو الحسن الندوي»، فنظر إلي متعجبًا وقال: «كيف تكون منشغلًا بالدعوة ولا تعرف الداعية الكبير الشيخ «سليمان الندوي» رحمه الله؟ اذهب وتعرف على من يعملون معك في نفس الميدان، فإن ذلك من مستلزمات نشر الدعوة».

وكان هذا قبل أربعين عامًا، واليوم أراني مع أربعة من المشايخ في قرية واحدة، ربما أزورهم حياء من الله، ولكن أحدًا منهم لم يزرني منذ عامين.

أيها الدعاة العاملون لله، تناسوا ما يكون بين عامة الخلق من صراع الشخصيات واستعراض الوجاهات، فهذا كله من الدنيا ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[آل عمران: ٧٩].

فن التربية الدينية

التعليم: هو تقديم المعرفة للآخرين.

والتربية: هي تدريب العقل والعاطفة وسائر الطاقات الإنسانية على مسلك معين.

ولا يستطيع الداعية أن يعمل خارج هذا النطاق، فهو إما معلم وإما مرب لجميع طبقات الأمة بمعنى من المعاني.

ولما كان للدين اتصال مباشر بسائر العلوم الكونية، لتفسير أسرارها والاستفادة منها، كان لابد من الاهتمام بتلك العلوم، والعمل على ربطها دائمًا بخالقها وخالق هذا الكون.

إن الدين روح وتأثر – ولذلك يجب أن تهدف دراسته إلى إشاعة روح التدين في الطلاب – حتى يتأثروا به فيما يفعلون وما يتركون من شئون الدنيا، ويحبون الله ورسوله. فقد يحفظ الطالب علوم الدين وينجح بها في الامتحان أو لا ينجح، ولكنه يكره الدين ومعلم الدين وسائر المتدينين.

وهذه جريمة ولاشك، يتحمل المعلم المسئولية عنها، لأنه إن كان قد حرص على زرع علم الدين، فهو لم يعبأ بزرع التدين في تلاميذه.

ويجب أن يتحدث المعلم في هذا الدرس بقلبه ولسانه، وأن يكون موقنا بما يقول، ليتوفر جو الرهبة والخشوع والوقار لدرس الدين ولمن يقوم بتدريسه أيضًا.

وأن يعرض الدين بجوهره وروحه السمحة، بعيدًا عن إثارة الخلافات والتزمت والانشغال بالقشور.

وأن يأخذ على نفسه الالتزام – سلوكيًا- بما يدعو التلاميذ إليه ليكون «مثلًا» يحتذى في نظرهم، وإلا كان صدًّا عن سبيل الله وكان متعرضًا لمقت الله وسخط الناس.

وأن ينأى بتلاميذه عن روح الحقد والتعصب في ظل الدين للاستعلاء على الآخرين، (ولا مانع من التعصب للدين بمعنى حمايته والاعتزاز به) وأن يزرع الرحمة والمحبة في قلوبهم، فالدين دعوة للأخوة العامة وعلاج لأمراض النفوس البشرية.

وأن يربط تعاليم الدين وأحكامه بالحياة الواقعية، وذلك عن طريق ضرب الأمثلة المستمدة من الواقع الذي نعيشه، وليس الخيال البعيد .. وما أحسن وصف الله تعالى لمهمة النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ويلزم في النصائح أن تكون قليلة ومفهومة وممكنة التنفيذ غير مصطدمة بحاجات الآخرين الضرورية .. فالوالد أو المعلم الذي يظل يلقى على ولده أوامر تقيده في كل حركاته وسكناته وتشعره بالذل والحرمان، يجعل منه عدوًّا لهذا الدين لا ينتظر منه إلا رد الفعل إلى العصيان وسوء السلوك.

وحرية الفكر تختلف عن حرية الكفر، فالناس في نظر الإسلام معسكران، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ﴾[التغابن: ٢].

فالكافر المحارب: أي الذي يعلن العداوة للإسلام ويحارب أهله: حكمه معروف – عدو دائم– نحاربه كما يحاربنا.

والمعاهد: إنسان غير مؤمن بالإسلام لكنه زميل في الوطنية، له حقوق المواطن ما دام حافظا لعهده – الذي أعطى له أو لأجداده – وخوله أن يعيش مع المسلمين.

والمؤمن: مرتبط بما ارتضاه وشهد به من رعاية حق دينه ومعتقده، فإن خرج على ذلك وارتد عن الدين وشروطه فليس له إلا السيف، ويعتبر إفساده لعقائد المسلمين من قبيل التناقض الخطير غير المقبول.

والقيم الأساسية في الدين هي الجوهر الثابت الذي لا يقبل التبدل ولا التطور.

وهي الإيمان بالله تعالى.

وباليوم الآخر والملائكة والقدر.

والإيمان بالنبيين عامة، والتصديق بالنبي محمد ﷺ، وبالقرآن الكريم وسائر أحكامه، والخضوع لأوامر الله ورسوله.

والتجمل بمكارم الأخلاق والبعد عن الرذائل والمعاصي، أما ما سوى ذلك فإنما يدخل في باب التأويل والاجتهاد، وهو بالتالي عرضة للمناقشة والبحث وتقدير الظروف.

وعندما ظهرت الحركة الإسلامية في العصر الحديث، كان لابد لها من اتباع أسلوب التنبيه للدين بشكل عام، والدعوة لتجميع الناس على مبدأ التمسك بالشريعة وعدالتها، وتزيين ذلك للناس .. لكنه بعد أن تنبهت قطاعات كبيرة من عدة مجتمعات لهذه المعاني، أصبح التوقف عند هذه التعميمات والاقتصار عليها دون التوسع فيها، يعد ضربًا من الكسل الفكري وتحصيل الحاصل، والهروب من المسئولية التي تفرضها المرحلة الجديدة، التي تستوجب البحث في التفاصيل وتقديم الحلول العملية لعلاج المشاكل بأدوية الدين.

العناية باللغة العربية:

هل كان من باب المصادفة أن يختار الله سبحانه – اللغة العربية- من آلاف اللغات لتكون هي أداة التبليغ لرسالة الإسلام؟ إنه يؤكد هذا القصد الإلهي مع مبرراته في مثل قوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[الزمر: ٢٨].

وقوله: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[النحل: ١٠٣]. فهناك ربط دائم بين اللسان العربي وبين الإبانة والإيضاح وسهولة الاستيعاب لحركات العقل البشري.

إنها لغة جميلة – سهلة التركيب – رائعة الإيجاز نطقا وكتابة، إنها من أقدر اللغات في التعبير عن المعاني الدقيقة، ومن أقدر اللغات على استيعاب كل العلوم والفلسفات ... وما أجمل قول حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية:

أنا البحر في أحشـــائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

وسعت كتاب الله لفـــظا وغاية ... وما ضقـت عن آي به وصـفات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتـنسيق أســماء لمخترعـات

إن نظرنا إلى التاريخ الماضي مع دراسة للحاضر، نجد أن أعداء الإسلام كلما أعياهم صرف المسلمين عن دينهم – عمدوا إلى قطع علاقتهم بهذه اللغة العربية- فلا تلبث أن تجف منابع المعرفة والعاطفة التي تربطهم بالأمم الإسلامية، ويصبح من السهل على أي غاز أو مستعمر أن يجرفهم في أي تيار فاسد.

نعم.. لقد أصبحت الملايين العديدة في آسيا وإفريقيا مبتوتة الصلة بالإسلام، وإن بعضهم ليعجز عن النطق بالشهادتين، بل إنه ليعجز عن رد السلام على من يسلم عليه من إخوانه المسلمين.

ومن أجل ذلك نوصي الدعاة بالعناية باللغة العربية – وعدم الاستسلام للهجات العامية- ولا يكون استعماله للعامية إلا حيث يتعذر التبليغ بغيرها – كعلاج مؤقت يسارع الداعية إلى العدول عنه في أول فرصة، فلا تكون أسلوبًا معتمدًا ولا طريقة دائمة، وليذكر قوله ﷺ: **«ألا إن العربية اللسان ... ألا إن العربية اللسان»**.

وعندما كان المد الإسلامي ساريا، كانت اللغة تمتد كالظلال أمام الفتوح، وكانت الشعوب تتشرف بتعلمها والتخاطب بها، ثم جاءت العصور المظلمة – عصور الضعف والاستعمار، فصار الناس يسارعون في تعلم لغة الفاتحين، أو كانت تلك اللغات تفرض عليهم فرضا من جانب المستعمرين.

ثم عادت دورة الحياة فتقلص ظل الحكم الأجنبي البغيض، وأصبح واجبًا علينا أن نعمل جاهدين على إحياء مجد اللغة العربية تمهيدًا لإحياء مجد الإسلام.

ولقد قامت كثير من الدول بخدمة لغاتها باختيار الكلمات السهلة النطق والإملاء – الكثيرة التداول- فجعلوا منها مختارات تدرس بكل وسائل التعليم والإعلام الحديثة، وحبذا لو قام المسلمون بمثل ذلك خدمة لهذه اللغة المعجزة، التي نزلت بها شريعتنا الغراء، بدلًا من أن يسارعوا في تقديم دروس اللغات الأجنبية في الإذاعات والتليفزيونات العربية والإسلامية.

أهمية العمل الجماعي

(أ) الخدمات الاجتماعية:

ربما يرى بعض المفكرين أن عملية الدعوة إلى الله لا ينبغي لها أن تنشغل بالخدمات الاجتماعية، إذ كان ذلك من غير اختصاصها ولا هو أساسًا من وظيفتها..

وهناك بعض الجماعات الإسلامية تحارب فعلا فكرة الاتجاه بالدعاة إلى المشاركة في تلك الخدمات .. ويرون أن خير ما يجب أن تكرس له الجهود هو الوصول إلى الحكم، وإقامة الدول الإسلامية بالمعنى الصحيح، ومن تلك القمة يبدأ الإصلاح..

ويقولون في تدعيم هذا الرأي:«إن تقديم مثل هذه الخدمات يكرس حكم الظالمين المجانبين لأحكام الله، ويطول عهودهم الفاسدة ويرمم صدوعها، فيجعل إقامة الدولة الإسلامية بعيد المنال» وهذا كلام لا يخلو من حق.

ولكن يرد غيرهم على هذا الزعم قائلين:

* إن الله تعالى ندب المسلمين جميعا لفعل الخير على طول خط الحياة بصرف النظر عن الأحوال التي تطرأ على الأشخاص والدول، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

[الحج: ٧٧]

* وإن للناس حاجات وضرورات ملحة – لا يجوز للدعاة أن يتركوها بدون علاج إلى أن تقوم دولة الإسلام ... ومن ذلك إطعام الجياع، وعلاج المرضى، وتعليم الجاهلين وإرشادهم، وإشاعة الحب والمرحمة بين الناس.

وقد تستنفد أعمار وتمضي عشرات السنين والقرون دون تحقيق أحكام الشريعة الغراء، وإذن تصبح الحياة جافة تفقد جمالها وخيريتها، إذا توقفت قوافل البر والخدمات.

ولهذا يلزم أن يسهم الدعاة في الخدمات الاجتماعية على أنها واجب وأنها من الوسائل إلى إنجاح الدعوة العامة.

وقد أنشئت أجهزة حكومية للخدمات الاجتماعية في معظم الأقطار، وهي توجه عناية لا بأس بها للخدمات العامة، ويستطيع الدعاة أن يتعاونوا في هذا المجال، ومنها:

- لجان تعمير المساجد
- لجان المصالحات والزيارات
- لجان الإرشاد الاجتماعي
- لجان الزكاة والإحسان
- جمعيات التعاون
- رعاية الطفولة المشردة
- أقسام مكافحة الأمية
- أندية الرياضة والكشافة
- مراكز التأهيل المهني
- رعاية المعوقين والعجزة.
- الجمعيات النسائية
- أقسام تحفيظ القرآن الكريم

وغيرها من ميادين العمل الاجتماعي النافع البناء، فعلى الدعاة أن يكونوا على اتصال عملي بها ما داموا يريدون وجه الله، بشرط أن تظل هذه النشاطات بعيدة عن المحظورات الشرعية.

(ب) إقامة المنشآت الخيرية:

وهي تندرج تحت الباب السابق لكن لها طابعًا إنشائيًّا تعميريًّا، ومن ذلك:

- بناء المساجد والمدارس والمستشفيات.
- تأسيس المصانع ومحطات الإنارة ومضخات المياه للصدقة.
- إنشاء معاهد التعليم وجمعيات التعاون المختلفة.
- إنشاء دور الدعوة ودور الضيافة العامة ونحوها.

ومعلوم أن الخدمات الاجتماعية ليست غاية في ذاتها، إنما هي وسيلة لترقية المجتمع وتخفيف آلامه، حتى يتمكن من استيعاب دعوة الحق والسلام.

المظهر العام:

لا ريب أن المظهر النبيل، الذي يتمثل في مجموعة العادات والتقاليد الحسنة له أثر طيب في الحكم على الدعوات، ومن ثَمَّ فهو يؤثر في مسيرتها...

وحبذا لو استطاع المثقفون أن ينشئوا بيئات متكاملة، تكون في مظهرها العام تطبيقا لتعاليم الإسلام بقدر الإمكان، وهذا ما دعانا إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ولقد ظل هذا الأمل يداعب عقول كثير من المفكرين عبر القرون، حين كتبوا «المدينة الفاضلة» و «المجتمع المثالي» وتخيل الفلاسفة قيام مجتمعات صناعية فاضلة أو مثالية...

ولا تزال كل دولة تقوم بمثل هذه المحاولات، ولكن على طريقتها الخاصة، لا على ما يريده الإسلام ودعاته.

ونحن نقول: إنه إذا تعذر قيام مثل هذه التجمعات العامة لأسباب كثيرة، فلا أقل من التواصي بالتزام خطة متماثلة بصورة اختيارية فردية بين الدعاة ومن يطيعونهم، في مختلف شئون الحياة تشمل:

- آداب السلوك، وقواعد اللياقة.

آداب الزواج والمعاشرة

- آداب الترفيه والحفلات والأسفار

- آداب المعاملات والتجارة والأخذ والعطاء

- تجهيز البيوت وتصميم الأزياء

- طرائق التربية والتعليم المنزلي أو الخاص.

ونحن نهيب بالعلماء والمتخصصين وأصحاب الفنون أن يقدموا لنا بعض النماذج الصالحة التي يقاس عليها في المجالات الآنفة الذكر، عن طريق التأليف والرسم والتمثيل، حتى يجد الباحثون شيئًا جاهزًا مدروسًا يمكن تطبيقه والأخذ به.

نماذج من التربية بالقدوة

ـ عرفنا في مصر شيخًا ممن يقتدى بهم.. كان من عادته أن يلتقي بتلاميذه من الشباب في رحلات تستمر يومًا أو بعض يوم، فإن لم يتيسر ذلك ففي لقاءات داخل المدينة.

يصلي بهم صلاة طويلة مطمئنة يقرأ فيها من طوال المفصل من آيات القرآن، ثم يقدمهم تباعًا للإمامة، يدربهم تدريبًا ويزرع فيهم الثقة بأنفسهم، ويضطرهم من بعد للحفظ والتجويد ويتناولون طعامًا مشتركًا، وأثناء تناول الطعام يذكر لهم ما ورد عن رسول الله ﷺ في آداب الطعام والشراب.

ثم يُقَوِّم إياهم بتدريبات رياضية، يذكرهم خلالها بما ورد في آداب الرمي والسباق والقوة والجهاد.

ويجلس معهم في جلسات روحية للذكر والتدبر وتلاوة القرآن، تتخللها أحيانًا القصص المشوقة والحكايات اللطيفة، ويغلب فيها التأثر والبكاء من خشية الله أحيانًا حتى ترق القلوب.

ويدعوهم لقيام الليل بالعبادة – فرادى أو جماعات- ويكون هو أسبقهم لذلك.

ويدربهم على أساليب الخطابة والدعوة، مع نقد متبادل للخطباء بعضهم لبعض، حتى يفك عقدة ألسنتهم، ويعطيهم الخطوة الأولى لتصدر الجماهير.

وفي هذه اللقاءات والرحلات يتوفر الحب العميق والتعارف الدقيق، وتتهذب الطباع، وتلين القلوب، وتمتلئ نفوسهم بالذكريات الجميلة، التي تجعلهم جميعا يتطلعون للاجتماع القادم ، مغالبين كل الأعذار بدلًا من أن ينقطعوا عن الجماعة بانتحال شتى الأعذار.

- وعرفنا شيخًا في بلاد الشام – هو الشيخ محمد الحامد- رحمه الله وأحسن مثوبته- إذا رأيته بديهة تظن أنك لقيت واحدًا من الصحابة أو التابعين يعيش مع الناس كأنه أدناهم، ويحاول الانبساط معهم وخدمتهم وإدخال السرور والمعونة على جميعهم- لكنه بحقائق نفسه شيء آخر، كان يحيا مع أهله على الكفاف – لقد آثر أن يكون خطيب مسجد عن أن يكون رئيسًا للقضاة، يتعفف عن كثير من المباح ليؤخذ عنه الورع، سألته مرة أن يريني نواعير حماة، فسار معي حتى إذا أصبحنا على نحو نصف كيلو متر منها أدار ظهره ثم قال: «إنها هناك فإن شئت فاذهب» ثم قال: «أما أنا فدعني هنا» فتقدمت حتى صرت قريبًا منها ورجعت إليه وقلت: «عرفت السبب» قال: «نعم... الأطفال يستحمون هناك عراة».

كان يحدثنا عن وفاة أخيه الأكبر ويثنى على علمه ودينه وفضله، فقيل له: «وكيف أولاده وزوجته»؟ قال: «تحولت بالأمس إلى منزل آخر.. ووالله ما رأيتها خلال ١٢ عامًا وهم يسكنون معي في نفس المنزل إلا يوم خرجت – وكانت مولية ظهرها وألقت علينا السلام».

وكان درسه في المسجد مليئًا مفيدًا شاملًا للتفسير والفقه والأصول والنكتة والأدب والشعر – تحس عنده أنك تلميذ- مهما بلغ علمك، ولقد كنا في الحلقة ذات يوم فوقعت في حجره حمامة وبقيت ساكنة- فبكى رحمه الله وقال: «وأين أنا من محمد بن حزم»؟

ثم حكى لنا أن الإمام محمد بن حزم الأندلسي كان يلقي درسه في المسجد ذات يوم، فجاءت حمامة كان يطاردها صياد ووقعت في حجره كأنها تحتمي به، فقال أحد الشعراء الحاضرين على الفور:

من عَلَّم الورقاء أن محلكم حرم وأنك ملجأ للخائف

- ورد في «تاريخ الجزائر» أن المندوب السامي الفرنسي كان يقول صراحة: «جئنا لطمس معالم الإسلام». وحدث أن استدعى شيخًا اسمه «عبد الحميد» وقال له: «إما أن تقلع عن تلقين تلاميذك هذه الأفكار وإلا أرسلت جنودًا لقفل المسجد الذي تنفث منه هذه السموم ضدنا وإخماد أصواتكم المنكرة».

فأجاب الشيخ عبد الحميد بقوله: «أيها المسيو الحاكم .. إنك لا تستطيع ذلك ...» فاستشاط غضبا وقال: «كيف لا أستطيع»؟ فقال له: «إذا أنا كنت في عرس علّمت المحتفلين – وإذا كنت في مأتم وعظت المعزين- وإن جلست في قطار علّمت المسافرين- وإن دخلت السجن أرشدت المسجونين- وإن قتلتموني التهبت مشاعر المواطنين .. وخير لكم أيها المسيو ألا تتعرضوا للأمة في دينها ولغتها».

وقريب من ذلك ما قاله ابن تيمية رحمه الله عندما ساقوه إلى سجن دمشق قال: «إن سجني خلوة - ونفيي سياحة – وقتلي شهادة» ثم تمثل بقول الشاعر:

إذا الله أحيـا أمـة لـن يردهـا إلى المـوت جبـار ولا متكـبر

ـ ومن الدعاة ذوي السيرة الحسنة – المحدث البارع عمر بن عبيد .. من شيوخ البخاري وأبي حنيفة، سُئِلَ عنه الحسن بن محمد فقال للسائل: «لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، إن قام بأمر قعد به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهرًا أشبه بباطن منه، ولا باطنًا أشبه بظاهر منه».

دخل عمرو يومًا على أبي جعفر المنصور في خلافته – وكان صاحبه وصديقه قبل الخلافة- فقربه المنصور وأجلسه ثم قال له: «عظني» فوعظه بكلام جيد .. فلما أراد النهوض قال له: «قد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم» قال عمرو: لا حاجة لي فيها، قال: لتأخذنها. قال: «والله لا آخذها».

وكان «المهدي» ابن أبي جعفر حاضرًا فقال: «يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت» فالتفت عمرو إلى المنصور وقال: «من هذا الفتى»؟ قال: «هو ولي العهد، ابني المهدي» فقال: «أما والله لقد ألبسته لباسًا ما هو من لباس الأبرار، وسميته باسم ما استحقه»، ثم التفت إلى المهدي وقال له: «نعم يا ابن أخي ... إذا حلف أبوك أحنثه عمك، لأن أباك أقوى على الكفارات من عمك»

فقال له المنصور: «هل من حاجة»؟ فقال: «هي حاجتي» ثم مضى فاتبعه المنصور طرفه وقال:

كلكم يمشي رويدا كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

- جاء في كتاب «مفيد العلوم» الخبر التالي:

كان المحدث المعروف سفيان بن عيينة جالسًا فجاء إليه ابن أخيه يخطب ابنته – فقال له عمه: «كفء كريم .. اجلس» فجلس فسأله سفيان أن يقرأ عشر آيات من كتاب الله قال: «لا أستطيع» فسأله أن يروي عشرة أحاديث شريفة قال: «لا أستطيع» قال: «إذن انشد عشرة أبيات» قال: «لا أستطيع».

قاله له عمه: «علام أضع ابنتي عندك؟ ومع ذلك لا أخيبنك». وأمر له بأربعة آلاف درهم .. واعتذر عن مصاهرته.

إن هذا الداعية يوجه ابن أخيه إلى دراسة الآداب والعلوم كما يوجه غيره من الشباب .. ولكنه كان مهذبا رقيقًا، فلم يجرح نفسه بأن يرده خائبا فواساه بالمال – وهذا .. من كمال الرأي.

وتاريخ الإسلام مليء بسير الدعاة الصالحين – رحمهم الله وغفر لهم- وإنما نجتزئ بهذا القدر لمناسبة المقام.